" فلسفة ابن حزم الأندلسي في الحب ما بين التقليد والتجديد"

د.حنان سعادات عبد المجيد عودة

الجامعة الهاشمية

ملخص البحث:

استقت الفلسفة العربية مادتها من مصادر كثيرة، فمنها ما هو يوناني، ومنها ما هو فارسي أو هندي أو سرياني، وكان من أهم هذه المصادر هو المصدر اليوناني.

ويعد ابن حزم من أبرز الشخصيات التي تأثرت بالفكر الفلسفي اليوناني في الأندلس؛ إذ حاول بناء فلسفة أخلاقية متكاملة أثرت في كثير من الفلاسفة والفقهاء من بعده، ومن هنا كان اهتمامي بالكشف عن عناصر هذه الفلسفة، وبيان مكانتها في تاريخ الفكر الفلسفي الأندلسي، ومدى تأثرها وتأثيرها في الثقافة الغربية .

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة ، أنها ترصد النظرة الفلسفية للحب والعشق عند ابن حزم الأندلسي، ومقارنة آرائه وأفكاره عنهما بآراء أفلاطون في الفلسفة اليونانية. فقد استطاع ابن حزم أن يرسم صورة متميزة للحب في ظل الحضارة العربية الإسلامية على خلاف صورتها في الفكر اليوناني.

فحاولت في هذه الدراسة التماس آراء ابن حزم الفلسفية والكلامية في الحب ونظرته للمرأة، واستقصاء اتجاهات ومناحي فكره؛ من خلال دراسة رسالته الموسومة "طوق الحمامة في الألفة والألاف" ، فقد عرض فيها المفاهيم الأساسية لنظريته في الحب، بما يتفق مع النظرية العامة في النفس، وبيّن ابن حزم في حديثه عن الحب، التغيرات الحاصلة في المحب والمحبوب، ومدى مراعاتها للحدود المرسومة من الدين، والأخلاق، والأعراف، والنظام الاجتماعي، فبدأت البحث بتعريف ابن حزم لماهية الحب ، ثم عرضت أسباب الحب وأعراضه عند ابن حزم، ثم عددت أنواع الحب، والغاية منه عند عالمنا، وفصلت الحديث في واقعية الحب في تصور ابن حزم، ثم عرضت الرؤية الجمالية للحب في فكر ابن حزم الأندلسي ، وذيلت البحث بخاتمة عرضت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج.

تمهيد:

الحب، كلمة تحمل معنى هو من أسمى المعاني وأنبلها، فهو عاطفة تدخل القلب دون استئذان ؛ لتهز مشاعرنا وأحاسيسنا وتحرك فؤادنا، فيمضي بنا الحب كيفما شاء وأراد، كونه يملك قوة لا مثيل لها، تسيطر علينا بإرادتنا أو رغما عنا ، فهو شيء داخلي يرتبط بالمشاعر والعواطف، فيبدأ بالإعجاب تجاه الطرف الآخر، ثم تنمو مشاعر الحب نحوه ، ذلك أن المحبة قيد من المشاعر التي تحقق التقارب والتجاذب والارتياح الداخلي بين البشر، أو الاستمتاع بالتواجد مع طرف آخر.

والحب مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا ما أردنا الخلاص منه لسبب من الأسباب، يشتد أكثر فأكثر، وكأنه ينتقم منا، فالحب جنة ونار، جنة إذا ما حدثت المشاكلة الطبيعية ونار إذا ما اختلطت النفس بالعوامل الأرضية، فتلوثت ولم تدر حقيقة توأمها الروحي، فتعيش الذات إما في حزن وأسى، بتقبل مصيرها المحتوم، أو تقر عدم الاستسلام، وتختار البحث عن هذا التوأم مهما كلفها ذلك، لا لشيء إلا لأنها تؤمن في قرارة نفسها بأن هذا الإحساس ينتظرها في مكان ما، فتكون بذلك متيقنة بأن الحب كائن ومن حق كل واحد منا الولوج في عالمه، بخيره وشره، بسلبياته وإيجابياته، ما دام هو ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة.

وابن حزم الأندلسي الفيلسوف والعالم الموسوعي من بين الكثيرين الذين حاولوا تحديد ملامح هذه الظاهرة وتتبع مسارها وإظهار كيفية اشتغالها، من خلال ما طرحه في كتابه :"طوق الحمامة في الألفة والألاف"، والذي يعده الكثير من العلماء مرجعية حقيقية في هذا الموضوع، فترجم إلى عدة لغات وحُقّق أكثر من مرة، كما أنه كان محط الدراسة والتحليل

منذ أن أُلّف استجابة لطلب صديق، يحمل له الفقيه في قلبه المودة، فحبب إليه هذا العمل وكلفه به .والكتاب، فضلا عن ذلك، غني بما يحمله من قصص وأحاديث طريفة في الحب ومعانيه، وحالاته وأسبابه، وأعراضه، وبما تضمنه من أشعار ترافق كل معنى، وتفسر كل حالة وتؤيد كل سبب.

المقدمة:

إنّ لمكان إبداع النصّ وإلقائه أثراً كبيراً في رسم معالم الإيحاء الفكري والاجتماعي والعاطفي عند مؤلف النص ومتلقيه على حد سواء. ولا يُنكر أهمية هذا الأثر في ترسيخ حدود العادات والتقاليد، وأنماط الحياة وبعث التجربة الثقافية، وتأطير علاقة شكل النص بمضمونه إلاّ معاند أو مستكبر؛ لما للبيئة الطبيعية والثقافية من دلالة على تطور الذهن الاجتماعي والفكري والفنّي، وإذا كانت مقدمات النصوص وعناوينها تعدّ العتبات الأولى في شكل البنية النّصية ، فإنّ المكان والزمان يعدّان العتبة الأولى في تشكيل هذه البنية والضابط الخارجي في تكوين معالمها[١].

فقد اشتهرت الأندلس بطبيعتها الفاتنة الخلابة؛ ولأجل ذلك أطلق عليها اسم– الفردوس المفقود – ولاغرو أن يمتزج الأندلسيون ببيئتهم الطبيعة، إلى درجة الافتتان بها فلا عجب أن يكلف أبو محمد ابن حزم الأندلسي بها، كلفا شديدًا، والأندلس آنذاك مرتع الجمال العجيب في طبيعته وأهله ، أثر في رجالها فلطف طباعهم بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به، وابن حزم منذ نعومة أظفاره صافي الذهن، مرهف الحس رقيق المشاعر[٢] ، وكان يتميز بتهذيب أرستقراطي متوازن، بالإضافة إلى البيئة النِسْوية، التي نشأ أبو محمد في كنفها ، فعملت على إرهاف حسه، وإشعال وجدانه فكان من ذلك أن تفتحت حواسه ونفسه على أفانين الحب والجمال، فليس بدعا بعد ذلك أن نراه مهتما بالكتابة في ماهية الحب، وبيان حقيقة الجمال.

وفي الأندلس كان للمرأة مكانتها، وشأنها شأن الرجل بلا أي تفاوت من الناحية الإنسانية، وذلك في حدود ما أوجبه الإسلام، على أساس طبيعة المرأة وفطرتها[٣] .

---

[١] انظر: حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص١١-١٤.

[٢] انظر: سعيد الأفغاني: ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة، المطبعة الهاشمية،دمشق،ط 1940 .م.ص٩٦، وانظر: عبد الكريم خليفة: ابن حزم الأندلسي، دار العربية للنشر بيروت ،د.ت.ط.ص١٩٧، وانظر: صلاح الدين بسيوني رسلان: القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٧٩-١٨٠، وانظر: عبد السلام سعد : ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، رسالة دكتوراه ، الجزائر، ٢٠٠٨/٢٠٠٩، ص١٠٩.

[٣] انظر: عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة،ط٢، ١٩٨٨م، ص ٥٨.

فقد كانت المرأة تتمتع بقسط كبير من الحرية، وكان بعضهن يتمتعن بنفوذ كبير في الحياة العامة السياسية والمدنية، وابن حزم لم يكن يتحرج من الحديث عن النساء وقد كان بوسعه أن يتكلم عنها في مواطن الجد أو مواطن الشرف والفخار، كما أنّ وضع المرأة في هذا المجتمع كان يسمح بمثل هذا الحديث[٤]. والمرأة الحرة كانت في الأندلس مقصورة تعيش خلف حجاب غليظ، وخاصة في الأسر الغنية، ولعلّها تشبه في ذلك أختها في المشرق، والحرية كانت مقصورة فقط على الجواري، ولكنّ المرأة الحرّة في تلك الأسر كانت ذات سيطرة وقدرة على التصرف، وهي محفوفة بالخدم والحشم.

أولاً: الحب في كتاب ابن حزم الأندلسي "طوق الحمامة ":

شغل ابن حزم في الحب كما شغل به من قبله كما ظهر في رسالته "طوق الحمامة في الألفة والألاف"، ولعل تسمية أبي محمد رسالته" طوق الحمامة له دلالات عديدة.

فأول ما يشد انتباهنا في رسالة طوق الحمامة هو تسميتها ، فما هو المعنى الذي أراده ابن حزم في تسميته لهذه الرسالة. يقول الثعالبي:" طوق الحمامة يُضرب مثلاً لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم"[٥]. ولكن عند دراسة أحوال الحب في الكتاب نجد أنّ معنى الدوام ليس من الأمور التي تلازم الحب، لا من حيث النظرية ولا من حيث التجربة.غير أنّ هذا لا ينفي أنّ الطوق للحمامة زينة مُنحتها بدعاء نوح، حين أرسلها لتستكشف المدى الذي سترسو عنده سفينته ، فطوق الحمامة هنا في هذه الرسالة كناية عن استلهام الجمال الذي هو مثار الحب ، أعني جمال الطوق ؛ لأنه حلية متميزة عن سائر لون الحمامة[٦].

---

[٤]) انظر: عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص ٥٩.

[٥]) الثعالبي: ثمار القلوب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٤٦٥.

[٦]) انظر:إحسان عباس : مقدمة رسائل بن حزم الأندلسي، ص٣٦-٣٧.

فالطوق يحمل بعدين: بعداً إيجابيا جمالياً ، وبعداً سلبياً فيه نوع من الأسر والقيد، وكأني بابن حزم يقول، هذا كتاب يتحدث عن العلاقة السرية بين الجمال والحب، أو هذا الكتاب أهميته بين الكتب أو الرسائل الأخرى كطوق الحمامة بالنسبة إلى الحمامة. وعند هذا الحد يقول الثعالبي:" إنّ الحمامة إنّما أعطيت طوقها من حسن الدلالة والطاعة"[٧]، فأضيف إلى الجمال والتميز عنصر الطاعة وهو عنصر مهم في مفهوم الحب. فالدارس لهذا الكتاب يلمح بوضوح في ثناياه ذلك الائتلاف والتوافق والتمازج بين الجانبين المتداخلين والمتكاملين في الآن ذاته :الحب والجمال.فطوق الحمامة كناية عن استلهام الجمال الذي هو مثار الحب.

ومع أنّ ابن حزم يقول في مقدمة رسالته:" وكلفتني أعزّك الله أن أصنّف لك رسالةً في صفة الحبّ وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة"[٨] ، إلاّ أنّ العنوان الذي اختاره لرسالته هو في الألفة والألاف ، يعني أنّه تجاوز في رسالته ما كلفه به صديقه لأنّ الألفة كلمة أعمّ من الحب ، وهي قريبة من الحديث الشريف في الأرواح:" فما توافق منها ائتلف" وبسبب هذه العمومية نجده أحياناً يخرج في أمثلته التي يوردها من دائرة العشق .

وإن كان فيلسوفنا ليعترف بأن الحب، هو شغل المرأة الشاغل، فليس بدعا أن نراه يهتم بدراسة أحوال العاشقين والعاشقات وأخبار المحبين، والحرص على فهم دوافع الناس الشعورية واللاشعورية[٩] .ولعلنا نطرح بعض التساؤلات الضرورية :من أين استمد أبو محمد نظريته في الحب والجمال؟ وكيف استطاع التوفيق بين اتجاهه السلفي الظاهري المتوقف على النصوص؟ وبين دراسته للحب والجمال المبنية على الاستبطان الذاتي، والتأمل العقلي.

---

[٧]) الثعالبي: ثمار القلوب، مصدر سابق، ص٤٦٥.

[٨]) ابن حزم :رسائل ابن حزم، مصدر سابق،ص٣٧.

[٩]) انظر: زكريا إبراهيم: ابن حزم المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٣١.

ثانيا :الحب : مفهومه وكيفية وقوعه

ما دام الحب حالة تصيب النفس الإنسانية ، فتأسرها وتقيدها، فإن معرفة حقيقة الحب تحتاج إلى فهم النفس، وقد بيّن ابن حزم أنّ النفس الإنسانية قد خلقت قبل خلق الله لآدم، فخلقت النفس ثم الجسد، فملكته وحلّت به، فالنفوس موجودة قبل الأجسام في العالم العلوي، ولابد لها من تصادق وتعارف ، كالمجاورة والاتصال، مما يعني وجود عدة حالات من الاتصال في هذا العالم قبل الهبوط للعالم السفلي، فالنفس الواحدة قادرة على الارتباط بأكثر من نفس، إمّا بالألفة والانسجام أو بالكره والتنافر وعدم الانسجام[١٠].

وهكذا فإن النفوس الإنسانية قد ارتبطت على نحو ما في العالم العلوي، فإذا تذكرت–بعد حلولها في الجسم– أحوالها السابقة قبل الحلول، فإنّها تعلم ما كان منها، وهذا ما يؤكده ابن حزم الأندلسي في تعريفه للحب ، فذهب أبو محمد إلى أن الناس قد اختلفوا في تحديد وضبط ماهية الحب، فقالوا وأطالوا ثم عرّفه بقوله هو :" اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ماحكاه محمد بن داود، عن بعض أهل الفلسفة :الأرواح أُكرٌ مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها"[١١].

---

[١٠]) حامد الدباس: فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم الأندلسي، دار الإبداع، همان، ١٩٩٣م، ص١٦٧.

[١١]) ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٣، وانظر: حامد الدباس، المرجع السابق ، ص١٦٨.

وهذا الاتصال كما يرى ابن حزم يقوم على التجانس القائم بين هذه النفوس والأرواح فيكون بينها الائتلاف والتحابب وحيث يكون الاتفاق والتشاكل والميل بين النفوس ينتج عنه الحب. مستدلا على ذلك بقوله تعالى : " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها"، وهذا التعريف الذي ذكره أبو محمد مرده إلى إيمانه بأن الله خلق الأنفس أو الأرواح فيكون بين بعضها بالطبيعة، تشاكل واتفاق وانجذاب[١٢].

وكلما كثر التجانس بينها تأكدت المودة وزاد المحبة، ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة طالبة له قاصدة إليه، باحثة عنه، مشتهية لملاقته، جاذبة له لو أمكنها، كالمغنطيس والحديد ... فانظر هذا تره عيانا [١٣]. ومما يؤكد ذلك في نظر أبي محمد هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف".

ولعل هذا التعريف الذي اعتمده أبو محمد، من القول باتصال أجزاء النفوس المعشوقة، واشتياق هذه الأجزاء إلى بعضها، أو إلى نصفها الآخر، فإذا عثر عليه تمت له المحبة والسعادة .تؤكد أن ابن حزم الأندلسي حاول أن يأتي بتعريف مانع جامع للحب ، اعتمادا على منابع شتى ، من خلال التوفيق بين الرأي الديني والفلسفي وتوحيدهما، فقد تجلى الرأي الفلسفي من خلال تأثر ابن حزم بآراء أفلاطون في الحب في كتابه":المأدبة "حين تحدث عن انقسام النفس شطرين، وإن كل شطر قد التقى مع نظيره، فحدث بينهما الحب، وإذا التقى محب بشطره، سواء محب للعلماء، أو غيره، أوجد فيه الحب والتعاطف، والشعور بالقرابة عاطفة قوية غلابة.

---

[١٢])ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٣، وانظر: حميدي خميسي: إشكالية الحب في رسالة ابن حزم طوق الحمامة، مجلة اللغة والأدب، ع٥، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ص٤١. عبد السلام سعد : مكانة ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، ص١١٣.

[١٣]) ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٧.

فالإنسان المحب بمثابة نصف كائن حي، لا يزال في شوق متزايد وحنين دائم حتى يتم الاتصال بنصفه الآخر، فتلتئم نفسه وتتحقق سعادته. كل منا إذن شطر من كائن كامل، وكل منا يبحث عن شطره الآخر.[١٤]. وهذا التعبير الذي يستخدمه أبو محمد: " وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال والشكل دأب– إنما –يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس، وتأثير مشاهد والتنافر في الأضداد، والموافقة في الأنداد ...كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها"، وهي فكرة الاتحاد الكائن عن المتشاكلين في الصفات، حيث كل نصف يشتاق إلى نصفه الآخر هو الذي أخذه أبو محمد عن أفلاطون إمّا مباشرة بالإطلاع على كتب أفلاطون المترجمة، خاصة "المأدبة "أو بطريق غير مباشر، حيث نقله عن بعض المتأثرين بالفكر الأفلاطوني[١٥].

وبهذا يعد ابن حزم في عداد أتباع الأفلاطونية في الإسلام، لأنه يستشهد بإحدى الفقرات التي أخذها محمد بن داود الظاهري في كتابه":الزهرة "وقد أخذها هذا بدوره عن أساطير أفلاطون في حديثه الشهير عن الأيروس في محاوره":المأدبة "حيث كان اعتقاد بعض أهل الفلسفة أن الله قد أعطى لكل من العقول التي خلقها شكلا كرويا ثم جعله قسمين، ووضع كل منهما في جسد. نجده جليا عند أفلاطون[١٦]، حيث يؤكد أن النفوس جواهر بسيطة تسكن عالم الأفلاك، وأن سر التمازج والتباين في المخلوقات، إنما هو الاتصال والانفصال حيث أن الشكل دائما يستدعي شكله، والمثل إلى مثيله يقترب.

---

[١٤])أفلاطون: المأدبة،ترجمة :د. وليم الميري، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م، ص٤٦.

١٥ انظر: محمد حسن عبد الله: الحب في التراث العربي، ص٧٦، وانظر: حامد الدباس: فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم الأندلسي، مرجع سابق، ص١٦٦.

16

فالانقسام من الأصل هو السبب الوحيد للتقرب، أمّا وقوع الحب فناتج عن القرب أو البعد بين الأفراد بعد حلول النفوس في الأجساد، أو الاتصال والانفصال، فحالة تذكر النفس لا يضعفها ولا يقوّيها إلا القرب أو البعد، كمن يحبّ شيئا، إذا استمرّ في مباشرة طلبه ظل حيا في نفسه، فإذا أهمله وابتعد عنه نسي هذا الشيء ولم يعد له ذلك القدر وتلك المكانة نفسها[١٧]. وهذا القول لابن حزم بالوجود السابق للنفوس وتشابهها ، وامتزاجها يتفق مع ما ورد عند أفلاطون ، في المأدبة .

وهكذا يتبين لنا أن ابن حزم الأندلسي أبدع في بيان فلسفة الحب المتأصل عن تآلف الأرواح محتجا بالحديث النبوي الشريف، مؤكدا على أن التعارف قديم وأن التوافق أو التنافر بين النفوس أزلي سابق، حيث يشعر بها الأفراد اتجاه غيرهم، ولو بدون سبب واضح ملموس، فقد تحب شخصا لغير سبب وتستثقل آخر وتنفر منه، ولو لم تره، ولم تتعامل معه وما ذاك إلا ؛لأن الأرواح تلاقت في الملكوت الأعلى من قبل، فتنجذب إلى قرنائها في هذا العالم، أي إذا لقي الروح قسيمه أو شقيقه، أحبه لاتفاق القسمين وازدواج الجزأين، فيكون بذلك الالتحام والتجانس، مستدلا بالآية الكريمة، السابقة الذكر ويدلنا ذلك أيضا على أن الحب لن يوجد بين طرفين في هذا العالم، إلا إذا كان قد وجد في السابق، أي قبل حلول النفس في الجسد[١٨]، ولن يكون بينهما انجذاب وتحابب واشتهاء للملاقاة إلا إذا كان من قبل كذلك الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تحس بالجزء الذي كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلّصت لاستويا في الاتصال والمحبة ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يُشركها في المجاورة ، طالبةٌ له، قاصدةٌ إليه، باحثةٌ عنه، مشتهيةٌ لملاقاته، جاذبةٌ له لو أمكنها، كالمغناطيس والحديد.

---

[١٧]) ابن حزم لأندلسي: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٦، وانظر: أفلاطون: المأدبة،ترجمة :د. وليم الميري، ، ص٤٦.

[١٨]) ابن حزم لأندلسي: رسالة طوق الحمامة،المصدر السابق، ج١/ص٩٦، وانظر: عبد السلام سعد : مكانة ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، ص١١٤.

وكالنار في الحجر لا تبرز على قوة النار في الاتصال...إلا بعد القدح...وإلا فهي كامنة في حجرها والمراد بذلك أنه لكي تفهم مسألة الحب، يجب أن نكون على معرفة ووعي بماهية النفس التي خلقها الله عزوجل، مذ خلق آدم- عليه السلام -وقبل أن تحلَّ بهذا الجسد، فالتعارف والتآلف أو التنافر والتباعد، كان موجودًا في العالم العلوي[١٩].

وهو يتحقق الآن أيضا فكل نصف يتوق إلى النصف الآخر الذي انفصل عنه فإذا التقيا تعانقا ، كأنما يطلبان الاتحاد، فإذا كان النصفان الملتقيان ذكرا وأنثى، نتج عن تلاقيهما التناسل فوجدا الاكتفاء في الاتصال، وإذا حدث التجاذب بين ذكر وآخر مثله، نشأت بينهما عاطفة قوية تمثلت في الصحبة والصداقة،لأن روح لكل منهما تتوق للأخرى توقانا لا تستطيع أن تفصح عنه.

وعلى هذا فليس الحب سوى، محاولة للعودة إلى الحال التي كان الآدميون عليها من ذي قبل، و ما هو إلا رغبة جامحة في استعادة الوحدة القديمة المتجددة ولأجل ذلك عبر أبو محمد عن الغموض الذي يكتنف ماهية الحب – بقوله:" الحب – أعزك الله- دّقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة"[٢٠]، ومهما يكن من تأثر ابن حزم بالفلسفات القديمة ، فقد جاء بتحليل نفسي وخلقي للحب وهو في ذلك يستضيء بمثالية أفلاطون ولكن شيئا مهمًا يفرق بينهما، هو أن ابن حزم لم يطل على الحب من خلال تأملاته كما صنع أفلاطون، وإنما نظر إليه من خلال تجاربه ومشاهداته وصوره.

---

[١٩])ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة ، ج١/ص٩٧.

[٢٠]) ابن حزم الأندلسي، المصدر السابق، ج١/ص٩٧/٩٨.

ثالثا :أسباب الحب وعلاماته ودرجاته.

يبدأ الحب بمتعة بسيطة سرعان ما تتحول إلى حقيقة، لا يستطيع الإنسان التخلص منها، ويبدأ بعد ذلك ضرب المعاناة النفسية ، فما الحب إلا أمر رغم كل ما سبق دقت معانيه لعظمتها عن الوصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. فكأنّ الأمر نوع من الحنين إلى عالم غير هذا العالم، فيتخلى المرء عمّا اعتاده في عالم الحس؛ ليصل إلى ذلك المقام، فالمحبوب لديه أغلى ما في هذه الحياة، فيرتبط مصيره بمصيره، فوصاله هو قمة السعادة، وكأنّ الوصل هنا عودة إلى حالة الوصل السابقة التي يتخيلها، وإذا فقده فكأنما فقد كل شيء حتى نفسه لا تعود تعادل قيمة ذلك المحبوب.

والحب الحقيقي ليس له انفكاك مهما كانت أسباب الانفصال، فكل شيء ينفصل أو يسوّغ انفصاله ما عدا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس، فهي لا فناء لها إلا بالموت؛ لأنها حالة من الاستمرار للوصول إلى حالة الخلود التي يتشوق الإنسان إليها، وأما أهمية المعاناة فهي التي تجعل من الحب فيه لوعة وعطش للآخر[٢١].

وابن حزم أحب بصدق ، ولامناص من الحب، والحب السامي اضطراري لا اختياري، يبعثه الجمال في القلب، وقد أشار أبو محمد إلى وقوعه في الحب قائلاً:" وعني أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي، شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر...وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، فالحسن والجمال سواء كان ماديا أو معنويا من أبرز الأسباب الداعية، للتقارب وتعلق النفوس بعضها ببعض "[٢٢].

---

[٢١]) حامد الدباس: فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم الأندلسي، مرجع سابق، ص١٧٣.

[٢٢])ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق، ج١/ص١٣٠.

"ولكن الحسن ليس علة دائمة، أو سببا أصليا للحب، لأنك قد تجد من يستحسن الأنقص والأدنى والأقبح، ولو كان علة حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص في الصورة ونحن نجد كثيرًا ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيدًا لقلبه عنه...فعلمنا أنه شيء في ذات النفس ومراده بذات النفس، في هذه الفقرة، أن النفوس مجبولة ومفطورة على الحب، بل على حب أشخاص النفس أو أشياء بعينها دون غيرها، واعلم أعزك الله –أن للحب حكما على النفوس ماضيا وسلطانا قاضيا، وأمرًا لا يخالف واحدًا لا يعصى .وطاعة لا تصرف، ونفاذًا لا يرد، فليس بإرادة المحب ولا باختياره أن يحب، بل هو أمر خارج عن الإرادة والمشيئة، ولابد لمن يقع فيه، ولا حيلة له وما ذاك إلا لأن الحب مسألة ميتافيزيقية يعيشها المرء على جبلته وسجيته ولهذا "ينظر ابن حزم إلى هذا الأمر على أنه شكل من الجبر يتحقق في وقوع الحب لا في استمراره... ومن هنا فإنّ "استحسان الحسن وتمكُّن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلبها.. وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة..." [٢٣].

وجعل ابن حزم للحبّ علامات وأعراض لا يستطيع المحب أن يخفيها ، وإذا حاول ذلك سرعان ما يكشف نفسه ، وهذه العلامات تحدث بين المتحابين قبل استعار نار الحب، وتأجّج حريقه، وتوقّد شُعَلِه، واستطارة لهبه، فإذا تمكّن الحب بينهما وأخذ مأخذه تحول الحديث بينهما سرارا، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارا.

فأمّا عن علامات الحب عند ابن حزم[٢٤] :

فأولها : إدمان النظر إلى المحبوب، فتنتقل نظراته حيث ينتقل المحبوب، وتنزوي بانزوائه، وتميل حيث يميل ، فتكون حركتها كحركة الحرباء مع الشمس.

---

[٢٣])ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق، ج١/ص١٣٠-١٣١.

[٢٤]) انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص١٠٣.

وثانيها: الإقبال بالحديث على المحبوب، والإنصات بلهفة وشوق إلى حديثه إذا تحدّث، والانبهار بكل ما يأتي به ولو أنّه شيء من المحال، وتصديقه وإن كان كاذبا، وموافقته وإن ظلم، واتباعه كيفما سلك وأي وجوه القول تناول[٢٥].

ومنها: الإسراع بالسير نحو المكان الذي يتواجد به، وتعمّد الجلوس بجانبه ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته، والتباطؤ في الشيء عن القيام عنه[٢٦].

ومنها: اضطراب وقلق يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه.

ومنها: أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه ممّا كان يمتنع به قبل ذلك، كأنّه هو الموهوب له، والمسعيّ في حظّه، كل ذلك ليبدي محاسنه، ويرغّب في نفسه[٢٧].

ومن علاماته: الانبساط الكثير الزائد، والتضايق في المكان الواسع، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل بالاتكاء، وتعمّد لمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء، وتحرّي المكان الذي قابله فيه.

حتى إذا اكتفيا المتحابين في المحبّة، وتأكدت بينهما تأكداً شديداً كثر تهاجرهما بغير معنى، وتضادهما في القول تعمدا، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه، وتأولها على غير معناها، ولا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة، وأهدرت المعاتبة، وسقط الخلاف، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة[٢٨].

---

[٢٥])انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق، ج١/ص١٠٤.

[٢٦]) انظر: ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج١/ص١٠٤.

[٢٧]) انظر: المصدر السابق، ج١/ص١٠٤.

[٢٨]) انظر: نفسه ، ج١/ص١٠٦.

ومن علاماته: أنك تجد المحبّ يستدعي سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام في أخباره، ويجعلها هجيره، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها، ولا ينهيه عن ذلك تخوف أن يفطن السامع، ويفهم الحاضر[٢٩].

ومن علاماته: حبّ الوحدة، والأنس بالانفراد، ونحول الجسم دون حر يكون فيه، ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي، دليل لا يكذب. والسهر من أعراض المحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب، ووصفوا طول الليل[٣٠].

ومن علاماته: أن ترى المحب يحبّ أهل محبوبه، وقرابته خاصة حتى يكونوا أحظى لديه من أهله، ونفسه ، ومن جميع خاصته.

ومن علاماته البكاء، والناس يتفاضلون فيه، فمنهم غزير الدمع، هامل الشؤون، تجيبه عينه، وتحضره عَبْرته إذا شاء، ومنهم جَمود العين عديم العين[٣١].

ومن أعراضه: الجزع الشديد، والحمرة المقطِّعة ؛ تغلب عندما يرى من أعراض محبوبه عنه ونفاره منه، وآية ذلك الزفير، وقلة الحركة، والتأوّه، وتنفس الصعداء، وسوء الظن، واتهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها إلى غير وجهها، وهذا هو أصل العتاب بين المحبّين[٣٢].

وأما عن آفاته، وما يعرض له الحب من تكدير صفو العلاقة بين المحب والمحبوب، بإفساد المحبة إما بالنميمة أو الغيرة والوشاية أو بما يقوم به العاذل والرقيب والواشي، حتى يحدث الهجر والجفاء فكثيرة هي تلك الصور التي قد تؤدي أحيانا إلى الخبل والجنون والبين، والمرض، والوسوسة، بل وحتى الموت أحيانًا[٣٣].

---

[٢٩]) انظر: ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج١/ص١٠٧.

[٣٠]) انظر: ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج١/ص١٠٨.

[٣١]) انظر: المصدر السابق، ج١/ص١١١.

[٣٢]) انظر: المصدر نفسه، ج١/ص١١٠.

[٣٣]) انظر: المصدر نفسه، ج١/ص١٩١-١٩٣.

وهكذا يصور لنا أبو محمد الحب في بدايته ونهايته كأنما يعايشه في واقعه إلى تصويره آخرة الحب تجد أنه تصوير أوضح من المحسوس، ومجاز أصدق من الحقيقة، مع تلخيص بليغ لتاريخ الحب من جميع نواحيه وما أدركت قط فهما أعمق في بيان مزالق الحب من هذا[٣٤].

كما يبدو أن أبا محمد قد انتبه إلى درجات الحب، وأنواعه باسطا القول في ذلك، مؤسسًا لنظرية الحب القائمة على التحليل النفسي لسلوك الأفراد، مشيرا إلى خمس درجات للحب، تبدأ بالاستحسان عادة، وهو أن يتمثل الناظر صورة محبوبه، بحسنه وحسن أخلاقه، ليحصل بعدها الإعجاب به، ورغبته الجامحة في قرب المنظور إليه، والتقرب منه، ثم تليها درجة الألفة، وهي الوحشة إن غاب عن ناظره هذا المحبوب فالكلف، وهو غلبة شغل البال أو ما يسمى بالعشق وأخيرًا درجة الشغف وهو الامتناع عن النوم والأكل إلا يسيرًا وربما أدى ذلك إلى المرض والتوسوس وحتى الموت ، وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة أصلاً[٣٥] .

وبقي ابن حزم في تصوره لعاطفة الحب واحدياً من جهة بقاء هذه الحالة حالة مستمرة، فبيّن أن الحب يقع بين اثنين فلا يتعدد المحبوب، فحتى يكون الحب صادقا ينبغي ألا يحب المحبوب محبوبين في الآن نفسه، فلا يمكن استيعاب محبوبين لنفس واحدة متعلقة بنفس واحدة أخرى. لكن هذا المفهوم الواحدي في الحب لدى ابن حزم، لا يعني بقاء الإنسان طوال حياته مرتبطاً بالمحبوب الواحد؛ لأن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، فإذا مات المحبوب فإنّ المحبّ حينئذ يبحث عن محبوب آخر؛ لأنّ فكرة المجاورة والاتصال تستوعب إمكانية وجود أكثر من مشاكل، ولكن سيطرة أحد المشاكلين غطى على غيره.

---

[٣٤]) انظر: ابن حزم الأندلسي : رسالة طوق الحمامة، المصدر السابق، ج١/ص٩٨-١١٣، وانظر: إحسان عباس، مقالة دراسة الحب عند ابن حزم، مجلة شؤون عربية، تونس، العدد ٣ ماي، ١٩٨١م، ص١٣٤-١٦٢.

[٣٥]) انظر: ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج١/ص٢٠٥، وانظر:سعيد الأفغاني: ابن حزم ورسالته في المفاضلة، ص٧٨.

وإذا ما تعرض المحب إلى حالة الفقد خاصة، فإنه يبحث عن مشاكل ثان ، ومن الممكن في هذه الحالة أن يحدث حب ثان؛ لأن صفة هذا المحب مشابهة لصفات المحبوب الأول.

وتعبر فكرة المشاكلة في الحب ، عن حب بالفعل، وحب بالقوة، لغير المحبوب بالفعل، فإذا ما انقضت سيطرة الحب بالفعل، ظهر محبوب آخر ليصبح بالفعل، وقد عبّر ابن حزم عن هذا المفهوم تعبيرا شخصيا، فهو أحب تلك الجارية التي ملكت عليه حياته، فتزوجها، وتألم لفقدها، وبقي حتى زمن بعيد يتحدث عن نفسه، ورغم ذلك الحب العنيف الذي جعل منه سبعة أشهر لا يتجرد من ثيابه، إلا أنه بحث عن حب ثان[٣٦] .

ويبقى الحب الأول حباً متميزا في تجربة العشق الإنساني؛ لأن الحالة الأولى تطبع النفس بطابعها، وتبقى هذه النفس تبحث عن صور، أو أنماط محاكية لتلك الحالة، فمن أحب فتاة بصفة معينة حباً عنيفا، وفقدها فإنّ الحبّ الثاني سيكون على نمط الحب الأول، ولا يرى ابن حزم أن هذا أمرا عقلانياً أو إرادياً في استحسانه لصفة ذلك المحبوب، بل رآه أمراً مغروزا قد انطبع في ذات النفس، حتى أصبح من ماهية الصفات الثابتة لتلك النفس، وكل من تحلى بتلك الصفة، ولا يستطيع التخلي عنها؛ لأن هؤلاء المحبين "ما فارقهم استحسان تلك الصفات، ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخليقة، ولا مالوا إلى سواها..حنينا منهم إلى من فقدوه وألفة لمن صحبوه، وما أقول إن ذلك تصنعا، لكن طبعا حقيقيا، واختيارا لا دخل فيه، ولا يرون سواه، ولا يقولون في عقدهم بغيره[٣٧].

فأصبح الحب في نمط دون آخر وهذا ما يسمى بالذوق الجمالي في الحب، وابن حزم يتحدث عن نفسه وأمراء بني أمية أنهم أحبّوا شقروات، فما استحسنوا غيرهن؛ لأن تجربة الحب الأولى لابن حزم خاصة، كانت مع فتاة شقراء.

---

[٣٦])انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة،مصدر سابق، ج١/٩٥.

[٣٧])انظر: ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج١/٩٥.

رابعاً: أنواع الحب:

بالرغم من أن المحبة كلها جنس واحد، إلا أنها أنواع وأشكال مختلفة ومتنوعة تختلف باختلاف الأغراض والأطماع، وبذلك تتعدد وجوه المحبة عند ابن حزم الأندلسي، فجعل أعلاها حب المتحابين في الله عز وجل، بسبب اجتهاد في العمل، أو لاتفاق في المذهب، أو لفضل علم يمنحه الإنسان، وهو حب القرابة، ومحبة الألفة، والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة لبر يضعه المرء عند أخيه، ومحبّة لطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة لبلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق، التي لا علة لها إلا اتصال النفوس[٣٨].

ويذهب أبو حزم إلى أن كل هذه الضروب من المحبة منقضية مع زوال عللها وأسبابها، وزائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدونها، فاترة ببعدها، ما عدا محبّة العشق الصحيح المتمكّن في النفس، فهذا النوع من الحب لا يزول ولا يفنى إلا بالموت[٣٩].

ويمكننا أن نشير هنا إلى أن أبا محمد، ممن يؤمن بالمطاولة في الحب، أي أنه لا يقع دفعة واحدة، ومن أول وهلة ، فقال :" وإنّي لأطيل من كل من يدّعي أنه يحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدقه، ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة...وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا وأخذي معه في كل جد وهزل..."[٤٠].

وهذه الفكرة تذكرنا بآراء أفلاطون بأن الحب والجمال والفضيلة لا تتقوى إلا بالممارسة الدائبة والدائمة والطويلة[٤١].

---

[٣٨])انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق، ج١/ص٩٥.

[٣٩])ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج١/ص٩٥.

[٤٠]) المصدر السابق، ج١/ص١٢٥.

[٤١])انظر: ناجي التكريتي: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية، دار الأندلس، بيروت،ط٢، ١٩٨٢م، ص٣٨٨.

وهناك أعراض مصاحبة لهذا النوع من المحبة ، هي انشغال البال، والخبل والوسواس، وتبدّل الغرائز المركبة، واستحالة السجايا المطبوعة، والنحول، والزفير ، وسائر أنواع الشّجا ما يعرض في العشق. . وحتى الرجل كبير السن إذا ذكرت أمامه الحب تذكر وارتاح وصبا، وحنّ إلى الطرب، وتهيّج حنينه لمعشوقه، فما بالك بمن كان شابا في مقتبل العمر[٤٢].

[٤٢]) انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق، ج١/ص٩٥.

خامساً: غاية الحب عند ابن حزم:

يقوم الحب عند أبي محمد على قيم إيجابية تتعلق بالأخلاق، حيث إنّ المحبة تولّد الوفاء ، والإخلاص، والصبر على المحب، ولهذا فهو يرى أن الحب وسيلة للزواج والسعادة، بل هو غاية أيضا، فحرص ابن حزم على بلورة موقفه من الحب الواحد، وكيف يجب أن يكون، فرفض أن يكون الحب عذريا ؛ أي علاقة من أجل ذاتها ، حبا محضا يتألم فيه المحب؛ ويذوق مرارة البعد والهجران؛ لأن الحب بنظره وسيلة وغاية في ذاته، أمّا من حيث إنه وسيلة، فهو وسيلة للزواج والسعادة، ومن حيث إنه غاية ، وللزواج عند ابن حزم أهمية كبرى باعتباره قمة سعادة المحبين، ذلك أنه بمثابة انتقال المحب لمشاركة المحبوب في الجسد، بعد أن كان يشاركه في الروح، والجسد يوصل إلى الروح، فالمحب يسعى إلى الوصول إلى داخل الآخر الذي ارتبط به، ويسعى إلى الاتحاد به وإلى وصله، ومن ثم إعادة حالة السعادة العظمى التي كانا يعيشانها فيجب أن يكون الحب نمطا إنسانيا رفيعا، لا يتعدى فيه المحبون[٤٣].

وبهذا ينتهي المحبان إلى حالة الاتحاد ضمن ثقافة وتقاليد المجتمع وأخلاقه. وقد حرص ابن حزم على بقاء الحب ضمن صورة التوسط، فلا مثالية، ولا تجرد في دعوته للمحبين للامتثال بها؛ لأنها تصبح نوعا من العذاب النفسي أكثر منها طريقا إلى السعادة، كذلك لم يهبط بها إلى الأسفاف والرذيلة[٤٤]، بحيث تقترن بمتطلبات الجسد، فيفقد الإنسان عواطفه الإنسانية النبيلة.

ومن ناحية أخرى فإن ابن حزم جعل الارتباط الجنسي نتيجة للحب الصادق لا سببا له، وهو بهذا يعكس بعدا أخلاقيا، ودينيا، واجتماعيا.

---

[٤٣])انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٥، وانظر: حامد الدباس: فلسفة الحب عند ابن حزم الأندلسي، مرجع سابق، ص١٧٦.

[٤٤])انظر: ابن حزم: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٥-٩٨.

وأصر ابن حزم أن يظل الحب عفيفا تحت أي ظرف من الظروف، حتى يصل إلى نتيجته وهي الزواج، حتى يتحقق الاستقرار النفسي للمتحابين ، وإلا تحولت هذه التجربة إلى نوع من التعب والشقاء لتناقضها مع معتقدات المحب ، كونه إنسانا يعيش بمبادئ معينة، وضمن مجتمع له تقاليده وعاداته التي تمنع المحب من تعدي هذه الحدود بما يسيء إلى المجتمع ومفاهيمه وتقاليده، تتبدى نظرة ابن حزم الدينية هنا؛ لأن الدين وخاصة الفقه قد نظم العلاقات الاجتماعية، والحب أحد هذه العلاقات التي ينتظمها الدين وتحكم بإطاره، وبالتالي لم يستطع ابن حزم إخراج الحب عن إطاره الديني[٤٥].

ولأطراف الحب صفات خاصة بهم ، قبل الحب، أي حال كون المحب خاليا من الحب، وفي لحظة معايشة التجربة، ومعاناتها وأخيرا الوصول إلى حالة الاستقرار في التجربة حينما يصل بها إلى نهايتها إمّا بالموت، أو الفراق ، أو النسيان ، وهذا ما يسمى بالخبرة المعاشة التي اكتسبها الفرد سواء في حالة الحب الأول أو حالات الحب اللاحقة.

وإن كل حالة من حالات الحب الصحيح لا تترك الكائن المحبوب ثابتا من غير تغيير لارتباطها بعواطفه ونفسيته وسلوكه، فهي إما أن تؤدي بالمحبين إلى جوانب سلبية، أو تؤدي بهم إلى جوانب إيجابية؛ لأن الحب مشاركة، يسعى المشارك فيها إلى تبيان أقصى ما يملك أمام المحبوب، شعورا منه بقيمة محبته وسعيا إلى محاولة فدائه، فإذا لم يكن الأمر على المستوى الأول الفداء فالأصل أن ينشط الشخصية، ويحاول بناءها بناء قويا[٤٦].

---

[٤٥]) انظر: ابن حزم: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص١٢٧، وانظر: حامد الدباس: مرجع سابق، ص١٧٧.

[٤٦]) انظر: ابن حزم: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص١٢٨، وانظر: حامد الدباس: المرجع السابق، ص١٧٩.

وعندما يحب الإنسان يرغب أن يكون أهلا للحب من الطرف الآخر فيبعث هذا عنده الطاقة المبدعة لأحسن سمات البشرية، ويحفزه على النمو المستمر، وعلى تطوير سخائه الروحي، وكشفه بكامله، ويصبح الإنسان أكثر إلحاحا فيما يطالب نفسه به، محققا كل ما هو خيّر وجيّد، مما يذخر به طبعه؛ لذلك فالحب يعتبر شعورا أخلاقيا من الدرجة الأولى ، وهو يرفع الإنسان إلى أخلاقية جديدة، تختلف عن أخلاقياته قبل تجربة الحب، فتتميز تجربة الحب بصفات خاصة بها، نابعة من التجربة ذاتها، فهي تتميز باللاوعي في أغلب لحظاتها، وتتميز بقدرتها الكبيرة على التغيير، دون جبر أو قسر، إذ" تتبدل الغرائز المركبة، وتستحيل السجايا المطبوعة" بكل يسر وسهولة مع محافظتها رغم ذلك على إبقاء صفة كل من المحب والمحبوب قائمة، رغم سعي كل طرف والمحب–خاصة– إلى التوافق الكامل، مع مشاعر ومتطلبات المحبوب؛ لذلك فالمحب الذي يعيش" الحب لا يلبث أن يجد لنفسه مستغرقا في حياة جديدة كأنما هو قد غزا ذاتا أخرى فاستطاع أن ينفذ إلى خبرتها الخاصة وأن يتسلل إلى حياتها الوجدانية العميقة، وأن يخترق صميم كيانها الخلقي بأسره على حين أن كل ذات تبدو في العادة كأنما عالم أصغر، مغلق على ذاته يجيء الحب، فيحقق ضربا من التواصل الخلقي بين الأنا واللا أنا، وكأنّ الذات قد نجحت في الخروج من عزلتها الأصلية، وهذه المعايشة تطبع نفس المحب بطابع تلك التجربة التي استغرقته[٤٧]. فالحب حالة شخصية بين اثنين وقد لا تتكرر بصورتها لدى غيرهم، لكن دخول الحب ضمن ظروف المجتمع يعطي الحب نوعا من التواصل الخلقي، فتصبح نوعا من اليقظة رغم حالة اللاعقلانية التي تسمها، وحالة اليقظة هذه قد تجعل من الحب ضربا من النية والاتجاه والسلوك الذي يحاول المحبون العيش ضمنه، ويشارك كل طرف في هذا حتى يؤول إلى خبرة خلقية.

---

[٤٧])انظر: حامد الدباس: فلسفة الحب عند ابن حزم الأندلسي، مرجع سابق، ص١٧٩.

سادساً: الرؤية الجمالية في الحب عند ابن حزم:

عاش أبو محمد في بيئة أندلسية، سامقة الألوان بديعة المناظر، ذات بهجة في جميع جوانبها مما جعل قلبه منفتحا على الحب والجمال إضافة إلى نشأته الأرستقراطية، وإشراف أرقى النساء في مجتمعه جمالا وعلما ومعرفة على تربيته وتنشئته فكان لهذا الإشراف أثر كبير على الرؤية الجمالية عند ابن حزم، وليس مستغربا أن تكون تلك النشأة المدللة، بين النواعم الشواعر، أن يفتتن أبو محمد بصور الحسن والزينة والجمال والبهاء بشتى ألوانه وأشكاله، ثم إنه ليس بمستغرب من إمام كابن حزم أن يملكه الجمال ويأسره، فما كان رجال الشريعة يومًا من الدهر غلف القلوب، ولا عمي العيون، ولا متبلدي الإحساس، بل إن ثقافتهم بطبيعتها تهديهم إلى معجزات الله في الجمال، وتحدوهم على تقديرها والتمتع بنعمها وشكر المبدع في صنعها[٤٨].

وارتبط الحبّ غالبا عند ابن حزم بالجمال، رغم أن الحب كما يرى هو قد ينصب على بعض الصور القبيحة، ويرجع هذا بنظره إلى أن الصور الحسنة ذات أهمية واضحة في الحب؛ لأنّ عالم النفس الأول عالم منسجم جميل ، لا كدر فيه، فارتبطت النفس بالجمال، فأصبح في ذاتها[٤٩]. أمّا تعلق النفس بأخرى فراجع إلى كون هذه النفس جميلة مثلها، وإن لم تكن جميلة، فقبحها حادث لظروف الاتصال بالطبائع الأرضية من الجسم، وهذا لا يشكل عائقا أمام استمرارية العلاقة بين النفسين، و ولذا يعتبر الجمال عند ابن حزم صفة من صفات النفس الإنسانية، حيث أنها تميل إلى الحسن.

---

[٤٨]) انظر: سعيد الأفغاني: ابن حزم ورسالته في المفاضلة، ص٥٥٧، وانظر: انظر: عبد السلام سعد : مكانة ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، ص١٢٥.

[٤٩])انظر: ابن حزم :الرسائل ، ج١/ ص٩٤، وانظر: صلاح الدين بسيوني رسلان :القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر،القاهرة، ط١، ١٩٩٠م، ص١٧، وانظر: انظر: عبد السلام سعد : مكانة ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، ص١٢٥.

فقال:" "النفس تولع بكل شيء حسن...فإن ميزت وراءها شيئا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية وإن لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة ، وإنّ للصور لتوصيلا عجيبا بين أجزاء النفوس النائية""[٥٠].

ولهذا يلعب الجمال عند ابن حزم دورا كبيرًا في ميلاد الحب وتقوية أواصره ، كما أن له أثرًا كبيرًا في نشوء الإعجاب لدى المحب فالظاهر أن النفس تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة ، وهذا الحسن الذي يتحدث عنه أبو محمد يتجلى في صور شتى سواء أكان ماديا أم معنويا، جسميًا أم نفسيًا ، فالحسن هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر به غيره ، ولكنه محسوس في النفوس باتفاق...وهو برد مكسو على الوجه، وإشراق يستميل القلوب نحوه ؛ فتجتمع الآراء على استحسانه[٥١] ، فالصورة الحسنة كما يرى أبو محمد، هي أول مراحل الحب، لأن النفس حسنة تعجب بكل ماهو حسن وجميل، وكذلك كان الحب عند أفلاطون حيث إن الجميل يحب الجمال؛ وذلك لإزالة ما في النفوس من وحشة ، وتتجلى الفلسفة الأفلاطونية في تعبير ابن حزم عندما أكد على أهمية الدور الذي يلعبه الجمال في ميلاد الحب ، بل إنّ الجمال عنده والاستحسان هو مقياس الحكم على الأشياء[٥٢].

والمتعة الجمالية عند ابن حزم ليست شيئا مشتركًا بين الناس جميعًا، بل هي خبرة ذاتية وتجربة نفسية ، فقد انتبه ابن حزم إلى تأثير الجمال في النفس الإنسانية، وعن تصوره لمفهوم الجمال، ولو بعبارات مقتضبة مثل قوله ولطف الحركات، وخفة الإشارات وقبول النفس لأغراض الصورة

---

[٥٠])ابن حزم: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٨.

[٥١]) انظر: ابن حزم : رسالة طوق الحمامة، ج١/ ص٩٨، وانظر: انظر: عبد السلام سعد : مكانة ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، ص١٢٧.

[٥٢])انظر: ابن حزم : رسالة طوق الحمامة، ج١/ ص١٢٣، وانظر: انظر: عبد السلام سعد : مكانة ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، ص١٢٥.

وإن لم تكن هناك صفات ظاهرة، فالقوام جمال كل صفة على حدتها، ورب جميل الصفات على إنفراد كل صفة منها ، بارد الطلعة غير مليح ، ولا حسن ولا رائع ولا حلو[٥٣].

فأبو محمد هنا يتحدث عن الجمال المعنوي، وكيف يثير الإعجاب في النفس بصفاته المتميزة التي تجل عن الوصف ، وهذا بدون شك تحليل نفسي من ابن حزم للجمال وهو أقرب بذلك إلى المدرسة النفسية منه إلى التصوف بل يمكننا أن نستشف من ذلك كله، أن الجمال عنده نسبي يختلف من نفس لأخرى، ولذا ينبغي البحث عن الجمال في النفس البشرية، التي هي أساس التفاوت في الذوق الجمالي بل إنها هي المصدر الأساس والرئيس في إصدار الأحكام الجمالية[٥٤].

فلم يشأ ابن حزم أن يدع ظاهريته حتى في الحب والجمال، فالحكم الجمالي عنده ، هو تلك القصدية التي تضفيها الذات المدركة الواعية على الموضوع المدرك، حيث يتم استحضار الحكم الجمالي لتتجلى حقيقته في الربط بينهما . "ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص في الصورة ...فعلمنا أنه شيء في ذات النفس "[٥٥]. فليس الحب إذن نابعاً من الجمال الحسي الذي تتمتع به صورة المحبوب، ولا قيمة للحب في بعدها الذوقي الجمالي، الناتجة عن تلك الجاذبية الحيوية التي أسمى تعيناتها الشوق الجنسي، والعشق المتجلي في الجانب الذي تمارسه الأعضاء وإنما هو بما تشعّ به النفس من حيوية، وبما تضفيه من فاعلية وجدانية على هذه المحبة[٥٦] .

---

[٥٣])ابن حزم: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص١٢٣.

[٥٤]) انظر: عبد السلام سعد : مكانة ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، ص١٢٦.

[٥٥]) ابن حزم: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٤-٩٥.

[٥٦]) انظر: عبد السلام سعد ، مرجع سابق، ص١١٦.

إن هذا الحب الذي يتحدث عنه ابن حزم ، إنما يكون بانجذاب نفس المحب إلى المحبوب، كجاذبية الأرض للأجسام، أو المغنطيس للحديد، ويشرح ذلك بأن خيال المحبين يسَقطُ على من يحب من صور الاستحسان والكمال ما يجعل شخصية المحبوب كاملة تامة الحسن، فالحب إذن هو تقارب بين الأنفس، ناتج عن سعي الشبيه وراء شبيهه، لما يرى فيه من حسن وجمال، أو لما يصبغه عليه من صور الكمال[٥٧]. وهذا التحليل الذي يعطيه لنا ابن حزم، يذكرنا بشكل واضح بمحاورة أفلاطون لوفيدر وفيها أن النفس جميلة تشتاق بشغف إلى كل ماهو جميل، وتميل نحو الأشكال الكاملة فيقع الحب بمعناه الحقيقي[٥٨]. وهو عندما يتحدث عن الحب والمحبوب، والانجذاب القائم بينهما على أساس الاستحسان، فالحب يقع إما بالوصف دون المعاينة ، وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب ...فإن للحكايات ونعت المحاسن، ورصف الأخبار تأثيرًا في النفس ظاهرًا، وأن تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سببا للحب واشتغال البال وهذا كله قد وقع لغير ما واحد[٥٩].

ولكنّ أبا محمد لا يحبذ هذه الكيفية؛ لأن الحب سينهار لكونه مبنيًا على أساس غير متين، بل إن التوهم الخادع هنا يصور المحبوب في أكمل صورة حتى إذا تمت المعاينة، يبطل الأمر بالكلية غالبا، وإن كان يتأكد أحيانا قليلة جدًا ، وإمّا أنه يقع بالنظر حيث يتعلق الشخص بمن يحبه عند رؤيته، فتستحسن النفس صورة المعشوق الذي يشاكلها". وكثيرًا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة، وهو أن يعشق المرء صورة...." [٦٠]، فالتعلق بالآخر كما يرى ابن حزم هنا سببه النظر.

---

[٥٧])انظر: ابن حزم : رسالة طوق الحمامة، ج١/ص٩٨-٩٩.

[٥٨])هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص٣٣٨.

[٥٩]) انظر: عبد السلام سعد ، مرجع سابق، ص١١٧.

[٦٠]) انظر: ابن حزم: المصدر السابق، ج١/ص٩٨، وانظر: عبد السلام سعد، مرجع سابق، ص١١٧.

ومن التذوق الجمالي تنشأ الأفكار وتتباين الثقافات التي تطبع كل حضارة في الحضارات بطابع متميز، ومع ذلك فأبو محمد يرى أن الناس جميعًا، وكل الأمم وسائر الحضارات يمكنها أن تتفق في الاستحسان والتعبير عن الجميل، بل وفي طلبه أيضا.

فالجمال ينبغي فهمه على هذا النحو، بصفته نعتًا أو صفة يضفيها الإنسان على الأشياء، إذا أدرك فيها بذوقه وحسه الجمالي واستحسانه لها ما فيها من قيمة حسنة أو ما يعود عليه منها، من قطوف جمالية.ومما أدركه أبو محمد أيضا، ذلك الجمال المتجلي في الطبيعة، ومن خلال التأمل العقلي يصدر حكمه[٦١].

وبهذا يتبين لنا أن إدراك الجمال، وتذوقه أمر متأصل في طبيعة الناس، ومن خلال لفت الإسلام أتباعه إلى النظر والتأمل في مظاهر الجمال الكونية والطبيعة، كان له أثر في رؤية أبي محمد الجمالية.

[٦١]) عبد السلام سعد ، مكانة ابن حزم الأندلسي بين الفلاسفة، مرجع سابق، ص١٢٧.

سابعاً: واقعية الحب عند ابن حزم الأندلسي:

إن الظروف المحيطة بالمحبين تؤثر في تجربة الحب سلبا وإيجابا، وتمثل هذه الظروف موقف المجتمع، والثقافة القائمة، ففي مجتمع إسلامي عاش فيه ابن حزم، يكون المحب بحاجة إلى الرسول إلى محبوبه، وهذا الرسول يجب تخيره ، فهو دليل عقل المرء وبيده حياته، وموته، وستره وفضيحته، بعد الله تعالى، ويجب أن يتحلى السفير بالصدق، والأمانة، وحفظ الأسرار، والأذمة، وأن يكون صادق النصح عاقلا، فهيما[٦٢].

ويفضل ابن حزم أن يكون السفير الناصح، من أصحاب السن العالية، نظرا لحنكتهم وبعدهم عن الريبة والشك، وقناعتهم إذ ضمرت عواطفهم وبقيت لهم الخبرة من تجارب مشابهة، فيسعون إلى المساعدة بكل سرور، لا سيما وأنهم خير من يقدر القيمة العليا للحب[٦٣].

لكن السفير قد يغدر بالمحب، إما لمجرد التفريق بينه وبين المحبوب، أو من أجل أن يقلب المحبوب إلى نفسه ويستأثر به دونه"، وللسن والتجربة السابقة دوراً في الحرص على الأسرار، فالفتيات ربما كشفن أسرار بعضهن، لصغر سنهن، وطيشهن، والغيرة من بعضهن، فيسعين إلى الإفساد، أمّا النساء المتقدمات في العمر فإنّهن أحفظ للسر، وأرغب في مساعدة المحبين ؛ لأن العجائز قد يئسن من أنفسهن، فانصرف الإشفاق محضا إلى غيرهن[٦٤].

و يولد الحب لدى الآخرين مواقف خلقية متباينة، تباين الأفراد وخبراتهم، فمنهم من أحب وفشل، أو أحبّ وسعد، أو لم يمر بالتجربة، كما أن منهم من ينظر إلى الحب على أنّه حالة من ضعف الإرادة، أو حالة إنسانية سوية.

---

[٦٢])ابن حزم: رسالة طوق الحمامة، ج١/ص١٤١، وانظر: حامد الدباس: فلسفة الحب عند ابن حزم الأندلسي ، ص١٨٧.

[٦٣]) ابن حزم: رسالة طوق الحمامة،ج١/ ص١٤١، وانظر: حامد الدباس: المرجع سابق، ص١٨٧.

[٦٤]) ابن حزم: رسالة طوق الحمامة،ج١/ ص١٤٢.

ومن هذه المواقف تبرز مواقف خلقية متباينة، يشير ابن حزم إلى بعضها ومن هذه (العذل) ،فالعاذل يلاحظ ما بالمحب من تغيير، وهو لا يدين في الوقت نفسه بالمحب، فيبدأ بمعاتبة المحب على حاله، ويقرر له سوء موقفه، ولهذا العاذل صورتان[٦٥]:

الأولى: من يعذل ليصحح حالة اعوجت، وتجاوزا حصل، فهذا إنسان يسعى إلى الإبقاء على حالة من التوازن؛ ولذا أسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه، فعذله أفضل من كثير من المساعدات.

أمّا النوع الثاني من العذال فيرمي إلى قتل الحب لذا نراه دائما زاجرا لا يفيق أبداً، من الملامة، وهذا خطب شديد، وعبء ثقيل.

إن رقابة المجتمع في تجربة الحب لا تقتصر على العاذل في تجربة الحب ، بل تأخذ صورة أكثر قساوة، وهي التي يمثلها الرقيب، أو الواشي.

أمّا الرقيب فمن شأنه أن يباعد بين المحبين، ويتسبب في إيلامهم، وهو على نوعين[٦٦]:

الأول: شخص لا ضرر كبير منه؛ لأن رقابته عرضية، وغير مقصودة، فهو خالي البال من السعي إلى التفريق، وإنما صادف وجوده الخلوة بين المحبين.

والثاني: شخص يراقب عمدا، قاصدا الحيلولة دون لقاء المحبين، وهذا أشنع ما يكون إذا كان ممن امتحن بالعشق قديما، ودهي به، وطالت مدته فيه، ثم عري عنه بعد إحكامه لمعانيه، فكان راغبا في صيانته من رقيب عليه"

فهذا الرقيب يعلم التفاصيل، ويحب الانتقام، والأذى، ويتعجب ابن حزم من المصيبة الحالّة على المحبّين من طرفه قائلاً:" فتبارك الله أي رُقبة تأتي منه، وأي بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته"[٦٧]. لمعرفته خصوصية العلاقة.

---

[٦٥])انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق،ج١/ص١٦١، وانظر: حامد الدباس: المرجع سابق، ص١٨٧.

[٦٦]) انظر: ابن حزم الأندلسي، المصدر السابق،ج١/ص١٦٧.

٦٧) انظر: ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه،ج١/ص١٦٨.

إنّ أكبر تحد يصادفه المحبون هم الوشاة، وهم قوم أرذال يسعون إلى كل سوء، وهم شر الخلق وهم النمامون، وأن النميمة لطبعٌ يدل على نتن الأصل، ورداءة الفرع، وفساد الطبع، وخبث النشأة، ولابد لصاحبه من الكذب، والكذب أرذل خلق يعيش به المرء، لأنه قصدٌ إلى تشويه الحقائق، وهذا يؤدي إلى أعظم الشر، وأكبر الضرر[٦٨].

والوشاة في الحب نوعان[٦٩]: يسعى كل منهما إلى التفريق بين المحبين بتشويه الحقائق عمدا، فالأول: واش يريد القطع بين المتحابين فقط، وهذا دليل على سوء طبعه، ورذالة خلقه؛ لأنه لا يسعى إلا للضرر، دون هدف غيره.

أمّا الثاني: فهو واش يسعى للقطع بين المتحابين لينفرد بالمحبوب، ويستأثر به، وهذا أشد شيء وأقطعه، وأجزم لاجتهاد الواشي ، واستفادة جهده.

ويؤكد ابن حزم أن الحب واحد عند الجميع لكن هناك شيئا يعصم بعض الأفراد، ويحفظهم في حبهم، ألا وهو القيم والعادات، يقول:" فلاح بهذا عيانا ما ذكرنا، من أن المحبة كلها جنس واحد، لكنّها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض منها، وإلا فطبائع البشر كلهم واحدة، إلا أن للعادة والاعتقاد الديني، تأثيراً ظاهراً" في حفظه طبائع الناس من أن تثور فيفقد المرء رباطه، ويقع في الرذيلة[٧٠].

لقد ركب الله في الإنسان طبيعتين متضادتين إحداهما لا تشير إلا بخير، ولا تحض إلا على حسن، ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضي، وهي العقل، وقائده الشهوة.

أمّا الأولى فهي العقل الداعي إلى التمسك بالفضائل، فغلبته يعني أن المحب حذر من أن يرتكب أمرا مشينا في حبه.

---

[٦٨]) انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق، ج١/ص١٧٠، وانظر: حامد الدباس: المرجع سابق، ص١٨٩.

[٦٩])انظر: ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج١/ص١٧١.

[٧٠])انظر: المصدر السابق، ج١/ص٢٥٠.

ولابد للعقل من سند يساعده في تجاوز الرذيلة إذا ما وقعت أسبابها، ويتمسك بالفضيلة مع غلبة أسباب الحب، وهذا السند هو: طول الرياضة، وصحة المعرفة، ونفاذ التمييز، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتنة[٧١].

أمّا من عرضت له الشهوة الشديدة، ولم يقع فيها، فذلك لأمرين[٧٢]:

الأول: اتساع المعرفة ورسوخها، لكن هؤلاء لا يصمدون إذا ما استمرّ الإغراء، إذ سرعان ما يستجيبون لداعي الغزل، فيسقطون في المعصية، إلا أن يعصمهم الله من الوقوع تحت سيطرة الباعث.

ويقول ابن حزم:" إمّا طبع قد مال إلى غير هذا الشأن، واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه، فهو لا يجيب دواعي الغزل من كلمة ولا كلمتين، ولا في يوم ولا يومين، ولو طال على هؤلاء المحبين ما امتحنوا به، لجادت طبائعهم، وأجابوا هاتف الفتنة، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك نظرا لهم، وعلماً بما في ضمائرهم، من الاستعانة به، من القبائح واستدعاء الرشد"[٧٣].

الثاني: حدس أضاء في نفوسهم فرأوا شر الخطيئة:" فانقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه"[٧٤].

إن هناك في المقابل طبيعة ثانية تدعو إلى الوصال: وهي قوة قائدها الشهوة فتلبس على الإنسان فلا يرى العقل شيئا وتعمى البصيرة، ولا يعود المرء عندئذ يفرق بين الحسن، والقبيح، فيعظم الالتباس وكل هذا ناتج عن تكلب الشهوة فيحدث من جراء ذلك أن يهون القبيح، ويرق الدين، حتى يرضى الإنسان في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح، وبوصول المرء إلى هذه الدرجة لا يرجى منه صلاح.

---

[٧١])انظر: ابن حزم الأندلسي: رسالة طوق الحمامة، مصدر سابق، ج١/ص٢٦٨،وانظر: حامد الدباس: المرجع سابق، ص١٨٩.

[٧٢])انظر:ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق،ج١/ص٢٦٨.

[٧٣]) انظر: المصدر السابق، ج١/ص٢٦٩.

[٧٤])انظر: المصدر نفسه،ج١/ص٢٧٠.

إنّ ثمرة الحب هي السعادة المطلقة في الآخرة، التي أعدّها الله، وهي السعادة المعدة لكل من لم يسقط في الرذيلة، ومن لم يرتكب الخطيئة وطوى قلبه على أمر من جمر الغضى، وطوى كشحة على أحد من السيف، وتجرع غصصا، أمر من الحنظل، وصرف نفسه كرها عمّا طمعت فيه، وتيقنت ببلوغه ، وتهيأت له، ولم يحل دونها حائل، لحري أن يُسر غدا، يوم البعث ، ويكون من المقربين في دار الجزاء ، وعالم الخلود"[٧٥]. وبهذا تكون تجربة الحب أحد أشكال تهذيب السلوك الإنساني.

[٧٥]) حامد الدباس: فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم الأندلسي، مرجع سابق، ص١٩٢.

الخاتمة

يتبين من خلال هذا العرض لنظرية الحب عند ابن حزم ، أنه قد أثرى برسالته هذه، ما ورد في الحب عند مفكري الإسلام وأثبت أنه حتى الفقهاء، كان لهم اهتمام بهذا الفن، ومساهمته تمثلت في استعراضه لمفهوم الحب، وبيان ماهيته وعلله وأشكاله، وإشارته إلى درجاته وعلاماته، ومسائل أخرى متصلة بموضوع الحب والعشق .فلم يترك جانبا من جوانب الحب والعشق إلا وأشار إليه وحلّله ووضحه وتطرق إليه، ولم يتحرج من الكلام في ما يتصل بالحب؛ ليقدم بذلك نظرية متكاملة، مازجا فيها بين الفلسفة ونصوص القرآن والحديث والمأثور عن الصالحين مزجا بعيدا معتمدا على الاستقراء من جهة، وعلى تجاربه الشخصية الذاتية من جهة أخرى؛ ولذلك استحق لقب " فيلسوف الحب عند المسلمين، كما أنه لم يقف عند حدود النظرة المثالية الأفلاطونية ولم يغرق في فلسفة الحب التجريدية، إنما اعتمد على الواقع والتجربة، وما شاهده من حوادث، وما استقرأه من ظواهر سلوكية، ومع أن كثيرين كتبوا قبله في الحب ،إلا أنه قد فاق من سبقه بدقة منهجه، وتسلسل أفكاره ، حتى إننا نلتقي في تضاعيف دراسته للحب بالكثير من الملاحظات القيمة، فجاءت رسالته حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة والخبرات الحية، والأمثلة التاريخية الصادقة، وأراد أن يكون آخر كلامه في الحب، على طاعة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على كل مؤمن داعيا إلى العفة في حديثه عن الجمال.

فهذا المفكر الأندلسي العظيم كان أعلم الناس بما في الجمال من خير، وما في الخير من جمال وخصوصًا في الفضائل ، وليس بدعًا أن نجد ابن حزم يربطهما بالدين، كما أفاض أبو محمد في الحديث عن علامات الحب الكثيرة، ككثرة البكاء والغيرة، وسوء الظن والاصفرار والكتمان وتتبع أخبار المحبين لبعضهم، أو الاضطراب الذي يبدو على المحب ونحوها من العلامات التي تكون قبل وأثناء استعار الحب وتأجج حريقه، وتوقد شعلته واستطارة لهبه مشيرا

إلى أن أطراف الحب الثلاثة تشارك في إقامة الظروف المهيئة للحب، وهي المحب والمحبوب، ورابطة الحب بينهما التي تؤثر سلبا أو إيجابا، مثل السفير القائم بينهما، والإخوان والناصحين والعذال والوشاة والنمامين، إضافة إلى عناصر أخرى، تساهم في لعب أدوار مؤثرة في عملية الحب، والمشاركة في إقامته أو إزالته.

فأبو محمد إمام اجتهد في الدين بالحب، وبيان عوارضه وأسبابه وأوصافه، بل وأنواعه وقواطعه ومظاهره مبرزا صورته الخيرة الإيجابية، وبمقابلها تلك الصورة المنفرة القبيحة، فظهر بمظهر الخبير العارف والمحلل السيكولوجي لنزعات وخلجات وأسرار النفس، مصورًا لنا حبه الشخصي، وبعضا من التجارب التي مر بها هو وغيره ممن عايشهم، واصفا تلك الحدة الرومنطقية التي علقت به، متخذا نزعة أفلاطونية . فقد استطاع ابن حزم أن يطلع على فلسفة اليونانيين في الحب والمرأة ، ويخلق لنفسه رؤية خاصة تحقق له التمايز، والتفرد، والتجديد.

فكتابة ابن حزم في الحب ، تميزت بكونها كتابة العالم الذي يؤثر الاستقصاء والبحث، ويعتمد الملاحظة والمشاهدة والاستقراء ويستنبط الأحكام والقواعد العلمية أكثر من الأدبية كما يعتبر كتابه"طوق الحمامة "من نفائس أمهات كتب التراث الإسلامي وذخائره البديعة في علم النفس، كما يعتبر مصدرًا هاما في موضوع الحب ولأجل ذلك ترجم كتابه إلى لغات عالمية.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

١-أفلاطون: المأدبة، ترجمة:د. وليم الميري، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.

٢-الثعالبي: ثمار القلوب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٥م

٣-حامد الدباس: فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم الأندلسي، دار الإبداع، عمان، ١٩٩٣م

٤-ابن حزم الأندلسي :رسائل بن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ١٩٨٧م.

٥-حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٦-حميدي خميسي: إشكالية الحب في رسالة ابن حزم طوق الحمامة، مجلة اللغة والأدب، ع٥، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر.

٧-زكريا إبراهيم: ابن حزم المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٦م.

٨-سعيد الأفغاني: ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة، المطبعة الهاشمية،دمشق،ط١، ١٩٤٠م.

٩-صلاح الدين بسيوني رسلان: القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٩٩٠م

١٠-عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة،ط٢، ١٩٨٨م.

١١-عبد السلام سعد : ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين، رسالة دكتوراه ، الجزائر، ٢٠٠٨/٢٠٠٩.

١٢-عبد الكريم خليفة: ابن حزم الأندلسي، دار العربية للنشر بيروت ، د.ت.ط.

١٣-محمد حسن عبد الله: الحب في التراث العربي، عالم المعرفة،الكويت،ديسمبر،١٩٨٠م.

١٤- ناجي التكريتي: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية، دار الأندلس، بيروت،ط٢، ١٩٨٢م

١٥-هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة : نصير مروة ،وحسن قبيسي ، منشورات عويدات،بيروت،ط٣، ١٩٨٣م.